

في ذكرى ثورة أكتوبر 1917 :

محطات على مسار حزب لينين - عمر الفاطمي - عبد الغني بوسته

المسار 6 نوفمبر 1985 العدد 14

المسار 20 نوفمبر 1985 العدد 15

المسألة التنظيمية وظروف تأسيس الحزب

تأسس الحزب المالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي في ظروف تختلف بشكل كبير عن ظروف وأوروبا الغربية، مهد الماركسية ومعقل الحركة الاشتراكية في بداية تطورها. ففي الوقت الذي كانت فيه الأحزاب الاشتراكية تتأسس في الغرب بشكل علني شرعي، جنباً إلى جنب مع النقابات والتنظيمات العمالية المشروعة كذلك وتتمتع بحد أدنى من الحريات في إطار النظام البرلماني البورجوازي، كانت روسيا تعيش تحت وطأة نظام الحكم المطلق الأكثر استبداداً وأوتوقراطية، أي في ظل الانعدام التام للحريات الديمقراطية - إذا ما استثنينا الحركات المطلبية العمالية الصرفة - التي لم تعرف روسيا صيغة من صيغها إلا بعد قيام الثورة الديمقراطية البورجوازية. وإلى غاية سنة 1895 تقريباً، كان الفكر السائد لدى المثقفين الأكثر تطوراً في الوعي، هو الفكر "الشعبي" الذي كان ينفي إمكانية التطور الرأسمالي في روسيا، ويعتبر أن هذه الأخيرة ستعرف الاشتراكية عبر طريق خاص وأقل معاناة مما سيعرفه الغرب، وذلك عبر قيام "جماعة الفلاحين" بالقرية. وهذا ما جعل المثقفين البورجوازيين يتقربون من الماركسية عند بداية ظهورها في روسيا (حوالي 1890-1900) بهدف هزم الفكر الشعبي البورجوازي الصغير والعمل على فتح الطريق إيديولوجياً أمام التطور الرأسمالي، واستعمال الطبقة العاملة واستغلال طاقاتها لهذا الغرض. وهؤلاء المثقفين "الماركسيين" كانوا بطبيعة الحال بعيدين كل البعد عن الفكر الثوري، واكتفوا بخلق وتنشيط حركة إصلاحية اصطلاح عليها "بالماركسية الشرعية" على النمط الغربي لكن بدون ظروف الغرب والحد الأدنى من الحريات الديمقراطية التي كان يتمتع بها. على العكس من ذلك فإن جهاز القمع القيصري (البوليس ورجال الدرك) كان يقوم بشكل منهجي بحرمان الحركة الديمقراطية من خيرة مناضليها وأجود قواتها... الشيء الذي كان يحتم تكوين نواة ثورية ثابتة ومنظمة بشكل سري، لتأطير الحركة العمالية المتنامية - كيفما كانت الظروف ومهما بلغت أساليب القمع شدة

واستبدادا - ولقيادة نضال الشعب بأسره نحو تحقيق انتفاضته الشاملة وتغيير الأوضاع القائمة تغييرا جذريا كهدف أساسي لا محيد عنه لتحقيق الاشتراكية .

هكذا أصبح من مهام الحركة الاشتراكية الديمقراطية الابتعاد عن المثقفين الذين يحاولون إضعاف الحركة العمالية وحصر أفاقها ضمن حركة إصلاحية ذيلية للبورجوازية الليبرالية ، والتوجه نحو تكوين اطر ثورية محنكة ومجربة ومتفرغة للعمل التنظيمي في جميع مناطق البلاد ، وتزويدهم ببرنامج واضح وتكتيك متين، وتوحيدهم ضمن تنظيم حزبي مكافح قادر في آن واحد على استعمال أشكال العمل السري لإبطال المراقبة البوليسية ومواجهة القمع وعلى الارتباط الوثيق بال جماهير العمالية لقيادة نضالاتها .

لقد توصل حزب لينين إلى هذه الخلاصات التنظيمية بشكل واضح منذ بداية القرن ، وتصدى لمعالجتها من خلال جريدة "ايسكرا" (الشرارة) الجريدة المركزية للحركة التي صدرت ما بين 1900 و 1903 (بمساهمة بليخانوف واكسيلرود ومارتوف وغيرهم) وفي نفس الظروف (1902) اصدر لينين كراسه المشهور "ما العمل؟" الذي لعب دورا تاريخيا بارزا في بناء الحزب ، حيث وجه ضربات قاضية للتيار الشعبوي داخل الحركة الاشتراكية - الديمقراطية ، وللتيار الاقتصادي الضيق كجزء من تيار "الماركسية الشرعية" والذي كان يعتمد على الحركات لعمالية العفوية التلقائية ويسعى إلى حصر نضال الطبقة العاملة بأسره في إطار اقتصادي ضيق (تنظيم الإضرابات وصناديق التعاون والإسعاف..) ينفي إمكانية قيام حزب اشتراكي مركز.

أما بالنسبة لمسألة الأساليب والأشكال التنظيمية التي يتوجب على الحزب إتباعها ، فلقد أجاب عنها لينين من خلال الوثيقة التي حررها سنة 1902 في شكل "رسالة لأحد الرفاق" والتي أصبحت معتمدة فيما بعد في بناء التنظيم الحزبي، فعلى رأس كل تنظيم محلي اقترح لينين تكوين لجنة أساسية من المناضلين المتفرغين المحتكين تكون مسؤولة ومشرفة على خلايا المنطقة التي لا تعتبر جزءا من الحزب وأعضاؤها أعضاء حزبيين إلا بتركية من اللجنة الأساسية . كما تشرف هذه اللجنة على حلقات المؤسسات التي تضم أنصار الحزب والمتعاطفين معه والتي تعتبر تابعة للحزب فقط. وحسب القانون الأساسي المصادق عليه في المؤتمر الثاني سنة 1903 فان اللجان وحدها لها الحق في التمثيلية في المؤتمر عن كريق مندوبيها المنتخبين ، إلى جانب اللجنة المركزية وأعضاء هيئة الجريدة المركزية التي لعبت دورا بارزا في تأسيس الحزب.

الصراع بين البلاشفة والمناشفة حول المسألة التنظيمية

لقد برزت أول الخلافات الحادة داخل الحركة الاشتراكية -الديمقراطية بشكل جلي واضح ما بين التيار الثوري - لبلاشفة أي الأغلبية - والتيار الإصلاحي المتذبذب - المناضفة أي الأقلية - في المؤتمر الثاني للحزب سنة 1903، وكان مفجر هذه الخلافات وأسسها : المسألة التنظيمية ، التي أولاها لينين منذ البداية اهتماما بالغا واعتبرها قضية حاسمة ، لاسيما أن الحزب كان لازال في طور التأسيس، فكان بالتالي من الضروري معرفة وتدقيق الأسس التي يبنى عليها . ولقد ظهر الخلاف حول هذه المسألة داخل هيئة تحرير الجريدة المركزية "الشرارة" ما بين لينين من جهة ومارتوف واكسيلرود -الذين كانا من بين مؤسسي الجريدة - وغيرهم من المناضلين الذين سقطوا تحت تأثير الفكر البورجوازي الصغير . وكانت وجهة نظر هؤلاء أن يعتبر عضوا في الحزب كل من ساندته أو شارك في النضالات الجماهيرية عامة ، بدون شرط الانتماء لإحدى منظماته. ومن البديهي أن هذا الطرح يفتح باب الحزب على مصراعيه للمتقفين والعناصر البورجوازية الصغيرة التي تخشى وتتجنب الانضباط الحزبي والنضال الثوري الملتزم ، ويحرف دور الحزب في قيادة لاضالات الجماهيرية قيادة واعية منظمة والالتجاء عوض ذلك إلى العفوية والتلقائية . ولقد طور المناشفة هذا الطرح ذاته عندما دعوا -في ظروف الجزر والتراجع الثوري التي تلت انتكاسة ثورة 1905 -إلى تصفية التنظيمات السرية وتأسيس حزب "شرعي واسع ومفتوح" ..

أما بالنسبة للينين ، فلقد طرح منذ المؤتمر الثاني إن "الحزب يجب أن يكون طليعة وقائد جماهير واسعة من الطبقة العاملة التي تعمل وتناضل تحت تأثير وقيادة التنظيمات الحزبية ، لكنها لا تنتمي كلها للحزب" وبالتالي فإن العناصر التي تنتمي بشكل شخصي لإحدى منظمات الحزب وتناضل بشكل نشيط في إطارها ، هي وحدها التي تنطبق عليها شروط العضوية في الحزب. وهذا ما يمكنه من الاعتماد على نواة ثورية صلبة ثابتة ، ويمح له ف نفس الوقت بتنويع أشكاله وأساليبه النضالية السياسية منها والجماهيرية الواسعة النطاق. وهذا الذي مكنه فعلا من الصمود والاستمرارية كيفما كانت الظروف واحترام برنامجه والوفاء له في احلكها ، والانتصار على الرجعية والقوى الإقطاعية والبورجوازية في نهاية المطاف .

ولقد تمسك البلاشفة بنفس التوجه الانتهازي المذبذب بخصوص مسألة المركزية الديمقراطية، حيث دعوا في ظروف ما بعد المؤتمر الثاني إلى "استقلالية" التنظيمات المحلية للحزب وعدم خضوعها للقيادة المركزية ، واعترضوا بشكل حاد على مبدأ الانضباط الحزبي

بدعوى انه مجرد بيروقراطية وانضباط أعمى . هذا الادعاء الذي تعرض له لينين بالتفصيل من خلال كراسه "خطوة " إلى الأمام خطوتان إلى الوراء " (1904) وأوضح خطورته وإبعاده الإيديولوجية والسياسية موضحا أن هذا الطرح يشكل في النهاية تعبيراً وامتداداً لجناح الانتهازي البورجوازي الصغير داخل الحركة الاشتراكية - الديمقراطية العمالية.

تنظيم خلايا المؤسسات

انطلاقاً من ضرورة لارتباط الوثيق بال جماهير العمالية ، دعا لينين منذ البداية (مؤتمر 1902) إلى خلق "حلقات المؤسسات " التي ستتطور فيما بعد إلى خلايا المؤسسات ، والتي مكنت الحزب من قاعدة فاعلة في الصراع الاجتماعي بشكل مباشر بحيث "يصبح كل معمل وكل مؤسسة قلعة من قلاعنا الحزبية ... " إلا أن هذا التحول التنظيمي الأساسي والحاسم في المسيرة التنظيمية للحزب لم يتم بشكل آلي بمجرد اتخاذ قرار معين، بل من خلال الممارسة النضالية وترابطها بالبناء التنظيمي الطويل النفس، وبتعاط مع موازين القوى والظروف الموضوعية لكل مرحلة. فبالرغم من تمركز البلاشفة في المؤسسات ونضالهم وسطها ، ظلت عدد من تنظيمات الحزب، وإلى أمد طويل، تتسم بطابع محلي جغرافي ، أو مهني وطني (خلايا الأحياء والمناطق، تنظيمات السككيين المهنية على الصعيد الوطني) وتتفاوت في الطبيعة والصلاحيات، وتفتقر للانسجام والتماسك ، رغم ما تخوضه من معارك هامة، ومساهماتها التاريخية في النهوض بالحركة العمالية عموماً . وبعد مرحلة قصيرة من التواجد "شبه السري" (1905-1906) غداة انتكاسة ثورة 1905 ، عاد لينين لي طرح المسألة التنظيمية ويؤكد على القواعد والضوابط التي يجب أن تحكم فيها ، فكتب سنة 1908 يقول : "أن القاعدة التي بنينا وبنينا على أساسها النواة الصلبة لثابتة للحركة العمالية الثورية هي تنظيم مراكز الحزب الأساسية بشكل سري متين، والنشر "اللامشروع" لأدبياتنا بشكل نشيط ومنهجي وقبل هذا وذاك، تنظيم الخلايا المحلية وخاصة خلايا المؤسسات بقيادة أحسن العمال الذين يعيشون في ارتباط مباشر مع الجماهير. وهذه النواة السرية ستصبح أوسع تأثيراً بشكل لا مقارنة له بالسابق، بفضل امتداداتها وتأثيراتها المتنامية داخل الدوما (البرلمان القيصري) ومتلف النقابات والتعاونيات والجمعيات. "

وهكذا وبقدر ما يشدد الحزب مقاييس عمل "النواة الثورية الصلبة الثابتة " وسيرتها - في ظروف المنع المطلق والقمع والاستبداد القيصري - بقدر ما يعمل على توسيع امتداداتها

ونفوذها وتأثيرها وسط المنظمات الجماهيرية بهدف خوض المعارك الدائمة وسطها و"كسبها من الداخل" وتأطيرها وقيادة نضالها في اتجاه الأهداف العامة التي يرسمها الحزب من أجل التغيير والانتفاضة الشاملة .

المركزية والديموقراطية

هكذا ناضل لينين ورفاقه من أجل الاعتماد أساسا على نواة سرية مقلصة من الثوريين المتفرغين في ظروف القمع المشدد التي كانت تحتم السرية المطلقة ويستحيل فيها تطبيق مبدأ الانتخابات. ومع تغيير الظروف نسبيا سنة 1905، اصح من اللازم إدخال تعديلات (نسبية أيضا) على السير الداخلي للتنظيم الحزبي بما يسمح بممارسة الديمقراطية داخله، لكن مع الحفاظ على جهازه السري كضمانة على الاستمرارية والقدرة على مواجهة ظروف القمع والمنع المطلق كلما دعت الضرورة إلى ذلك . يقول لينين في مقال نشره سنة 1907 : "إن الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي منظم بشكل ديمقراطي. وهذا يعني أن يجمع شؤون الحزب مسيرة بشكل مباشر من طرف ممثلي كافة أعضاء الحزب بحقوق متساوية وبدون أي استثناء. هكذا فإن جميع موظفي الحزب (المتفرغين) وجميع هيئاته المسيرة وجميع مؤسساته ، منتخبة وملزمة بتقديم الحساب حول مهامها وقابلة للعزل أو التغيير(..) ولكي يصبح قرار معين حول قضية معينة قرارا ديمقراطيا حقا، فلا يكفي أن يبت فيه اجتماع المندوبين المنتخبين من طرف التنظيم ، بل من الضروري في نفس الوقت أن يبدي كل عضو من أعضاء الحزب رأيه المستقل، كل واحد باسمه الشخصي، حول القضية المطروحة والتي تهم الحزب ككل. إن الأحزاب والجمعيات المنظمة بشكل ديمقراطي لا يمكنها أن تتخلى مبدئيا عن استشارة من هذا القبيل جميع أعضائها، على الأقل بالنسبة للقضايا الأكثر أهمية"

ويؤكد لينين من خلال عدد من المداخلات والكتابات على ضرورة مساهمة كافة أعضاء الحزب مساهمة واعية حرة في صنع قراراته الأساسية ، وحققهم في مراقبة حسن تنفيذها بوفاء تام للخط العام المقرر ديمقراطيا. فمن حقهم انتخاب جميع الهيئات المسيرة للحزب بدون استثناء، من أسفل السلم التنظيمي إلى أعلاه - من خلال المؤتمرات المحلية الوطنية - وتبقى تلك الهيئات خاضعة للمراقبة والمحاسبة من طرف منتخبها. وفي نفس الوقت تصبح القرارات المتخذة بشكل ديمقراطي من طرف الهيئات العليا ملزمة بالنسبة للهيئات السفلى. هذا هو المبدأ العام للمركزية الديمقراطية الذي سطره ونفذه حزب لينين طوال مسيرته النضالية (رغم عدم التقيد الحرفي به في ظرف خاص فرضه الصراع الداخلي ضد المناشفة، كما سنرى لاحقا).

ومن البديهي أن ظروف القمع المشدد ، وبالتالي السرية المطلقة، التي عرفها الحزب ابتداء من مؤتمره الخامس المطلقة ، التي عرفها الحزب ابتداء من مؤتمره الخامس (1907) إلى غاية قيام الثورة وانتصارها سنة 1917، لم تسمح له باستدعاء وتنظيم مؤتمراته الجهوية ومؤتمره الوطني بشكل عادي ، أي بتطبيق واسع وكامل للديمقراطية والانتخابات الداخلية، مع انه ظل وفيما تماما الوفاء لخطه الاستراتيجي وبرنامجه الثوري الذي مكنه من الفوز والانتصار. وهذا ما يؤكد مرونته وقدرته على التكيف مع جميع الظروف. فالديمقراطية الداخلية ليست بمبدأ جامد قابل للتطبيق الحرفي في كل وقت وحين ، وفي جميع الأوضاع والحالات، بل إن "الجدوى الثورية" هي التي تتحكم بالأساس وهي الاعتبار الحاسم في جميع الظروف والحالات ... فتارة يتوجه الحزب الثوري نحو توسيع مبدأ الديمقراطية توسيعا كاملا ، وتارة أخرى يضطر إلى تقليصه وتغليب المركزية مؤقتا إلى غاية تجاوز الظروف المعيقة والتمكن من إعادة التوازن بين الديمقراطية والمركزية . هذا الذي حدث مثلا إبان الحرب والتدخل الأجنبي حيث أصبحت قرارات اللجنة المركزية بمثابة أوامر حزبية كفاحية تطبق حرفيا وبانضباط تام من طرف كل الأعضاء . لكن ما أن انتهت الحرب الأهلية وتحسنت الظروف الاقتصادية وابتعدت الإخطار الكبرى المحدقة بالثورة، حتى عاد الحزب ليطبق الديمقراطية ويعطيها مكانتها البارزة في حياته الداخلية ، أي تطبيق المركزية الديمقراطية بشكلها المتزن المتكامل.

النضال ضد الخط التصفوي

برز الخط التصفوي داخل الحزب من خلال ظاهرتين متلازمتين : تخلي عدد من "المتقنين" والعناصر البورجوازية الصغيرة عن الحزب ومغادرة صفوفه في ظروف تنكر المناشفة – الذين ظلوا داخل الحزب – للقرارات والتوجيه الثوري ومحاولة تصفيته وتصفية وجود حزب ثوري عمالي نفسه ، ومحاولة استبداله "بجمعية غامضة الشكل في إطار الشرعية بأي ثمن ، حتى ولو كان مقابل الحصول على تلك الشرعية هو التخلي العلني على برنامج الحزب وتكتيكة وتقاليده " على حد تعبير لينين في وصفه لهذه "المحاولة التصوفية من داخل ...". لقد خاض البلاشفة صراعا داخليا مريرا ضد المحاولة هذه ، سواء على المستوى الإيديولوجي ، أو في الميدان التنظيمي باعتباره صراعا ضروريا لا محيد عنه "لتصفية التصفويين" والحيلولة دون انحراف الحزب وسقوطه في النهج الانتهازي البورجوازي الصغير وبالتالي تحوله إلى حليف موضوعي لبورجوازية . في هذا الاتجاه طرح لينين على الندوة الوطنية التي انعقدت سنة 1908 بحضور المناشفة ، ملتصبا تنظيما يجعل من التنظيم السري

حجر الزاوية في الهيكل الحزبي، وذلك مع تأكيد ضرورة استعمال جميع الإمكانيات الشرعية والتواجد في جميع الواجهات النضالية . كما يتولى هذا الملتمس الذي صادقت عيه الندوة عناية خاصة وأهمية بالغة لضرورة خلق وتمتين واحكام الخلايا الحزبية داخل المؤسسات. وبالرغم من مصادقة المناشفة على هذا الملتمس ، استمروا في التمسك بالخط التصفوي والتنظير له بشتى التبريرات والتعديلات، وممارسته عمليا على المستويين السياسي والجماهيري عامة . ولم يكونوا الوحيدين الذين سلكوا هذا النهج، بل لقد برز "تصفويون جدد" داخل تيار البلاشفة نفسه، تحت غطاء الثورية والمواقف المتطرفة ظاهريا ، المواقف الداعي إلى مقاطعة "الدوما" مقاطعة مبدئيا بغض النظر عن الظروف وموازين القوى، تلك الموقف التي تلتقي موضوعيا وعميا مع خط المناشفة في نتيجة واحدة : العمل على تصفية الخط الثوري للحزب، وتشويه تكتيكة السياسي ووافشاله. يقول الملتمس الصادر عن الاجتماع الموسع لهيئة تحرير جريدة "الكادح"

سنة 1909 حول هؤلاء التصفويين الذين برزوا من صفوف البلاشفة : "بسبب بعض الظروف السيئة ، أصبح هؤلاء العناصر يظهرون بوضوح متزايد افتقارهم للصرامة الاشتراكية - الديمقراطية ، وتعارضهم القوي مع قواعد التكتيك الاشتراكي الديمقراطي الثوري (..) والحقيقة أن نظريتهم المستترة وراء الجملة الثورية ما هي إلا الوجه الثاني للتصورات الدستورية الخيالية التي تعقد الآمال على أن برلمان المملكة (الدوما) سيتمكن من حل هذا المطلب أو ذاك من المطالب العاجلة للشعب، وبالتالي فإنها بحكم طبيعته نفسها تسعى إلى استبدال الإيديولوجية الثورية بالاتجاهات البورجوازية الصغيرة . إن هذه النظرية التي تحاول الاعتماد على بعض تطبيقات شعار مقاطعة الهيئات المنتخبة في هذه اللحظة أو تلك من مراحل المد الثوري لاستنتاج موقف المقاطعة كميزة خاصة في التكتيك البلشفي في مرحلة الثورة المضادة ، أنها تشكل بذلك وبجم طبيعتها الوجه الآخر للمنشفية التي تطالب من جهتها بمشاركة عامة بدون قيد ولا شرط في جميع الهيئات المنتخبة وبغض النظر عن مراحل تطور الثورة وعن تواجد مد ثوري أو انعدامه (..) إن البلشفية كتيار حازم داخل الحزب العمالي الاشتراكي- الديمقراطي لا تجمعها أية صلة بدعاة هذه النظرية ، وإن عليه أن يخوض الصراع الأكثر حزما ضد هذه الانحرافات عن الخط الماركسي الثوري".

توجه البلاشفة للصراع ضد "الماركسيين المثاليين" الذين انحرفوا عن النظرية الثورية وإيديولوجية الطبقة العاملة وسافروا يدعون إلى خليط من الأفكار المثالية الانهزامية بنفس

الحزم والصرامة التي طبعت صراعهم ضد المناشفة ، واتسم هذا الراعي هو الآخر بنفس الحدة والجدل الصريح الهادف، بدون أدنى مجاملة ولا هوادة. لقد اتسم الصراع ضد الانحرافات اليمينية الواضحة منها والمتسترة وراء الشعارات الشعارات المتطرفة العقيمة ، اتسم فعلا بطابع الحزم والشدة والعنف الكلامي إن صح التعبير. وهذا ما جعل عددا من الماركسيين البارزين في أوروبا الغربية آنذاك يقفون (عن صدق وحسن نية ولاشك) ضد هذا الصراع المحترم وينددون به وبالدور القيادي الذي يلعبه لينين داخله، ويعتبرون بأن هذا الأخير يعمل على "التفرقة" وعلى تحطيم تنظيمات الحركة العمالية. إلا أن التاريخ اثبت أن ذلك الصراع الحازم الضاري ضد كل ألوان الانحراف والتضليل وكل محاولات تشويه النظرية الثورية هو الذي سمح بخلق ذلك الحزب الثوري المنسجم الذي صهره النضال الإيديولوجي الصارم والكفاح السياسي الطلائعي، في قالب فولاذي صلب متماسك، والذي بدوره لم يكن بإمكان الحركة الثورية في روسيا القيصرية أن تحقق الانتصار الباهر على القوى البورجوازية وفلول الإقطاع والوقوف سدا منيعا في وجه الامبريالية العمالية الزاحفة.

وإذا كانت الصرامة في المبادئ الأساسية والثبات والاستمرارية في الخط، كيفما كانت الظروف ومهما اشتدت شراسة الصراع ضد الأعداء والخصوم، هي الميزة الأساسية التي طبعت نهج البلاشفة بقيادة لينين، فهناك ميزة أخرى ترادفها وترتبط بها ارتباطا جديا أولا وهي المرونة الكبيرة في البحث عن الصيغ العملية ، تنظيميا وجماهيريا ، التي تقدم الصراع الطبقي وتخدم مصلحة التغيير دون المساس بالمبادئ الأساسية، بل وفي إطار الوفاء الدائم لها ...

هكذا ورغم الخلافات والصراعات التي رأينا كيف ابتدأت منذ مطلع القرن ما بين الاتجاه الثوري داخل الحزب، ومختلف الاتجاهات البورجوازية الصغيرة وعلى رأسها المناشفة، فإن لينين قد عمل باستمرار على حفظ وحدة الحزب ، وعدم الاستعجال في حسم التناقض بصفة نهائية، بل ترك المجال وإتاحة كل الفرص للتقويم والتصريح من داخل الحزب. ففي الوقت الذي بلغ به الصراع الإيديولوجي ، صراع الأفكار والتوجهات الأساسية ، أعلى درجات الحدة شكلا ومضمونا تم الحرص كل الحرص على حفظ الوحدة التنظيمية للحزب إلى أقصى مدى ممكن ، وتجنب لينين باستمرار أية عملية انشقاقية مبكرة يكون مفعولها بمثابة إجهاض للحركة الثورية في وقت لم تتمكن فيه بعد من تصليب عودها واكتساب التجربة والحكمة الضروريتين لتثبيت استقلاليتها وقدرتها على القيام بدورها التاريخي بمعزل عن كل أصناف المنحرفين والمرتدين.

بل أن الصراع الإيديولوجي داخل نفس الإطار التنظيمي، مع إتاحة الفرصة باستمرار للأفكار المعارضة للتعبير عن نفسها بشكل ديمقراطي، ثم امتحان كل أطروحة على حدة في ميدان النضال وبالاكتكام للجماهير وللممارسة ونتائج العملية ، هي أحسن طريقة لهزم الانتهازميين و "تصفية التصفويين"، وأفضل ضمانة لكسب الحنكة المذكورة وتمريس الأطر والمناضلين على مختلف أشكال الصراع، بما في ذلك الصراع الضروري والحتمي ضد الانتهازية التي تنبث من داخل الحزب، أي الصراع ضد حلفاء الأمس و "إخوان المسيرة" الذين يهزمون في منتصف الطريق أو يتعرضون لشتى أشكال التأثير المادي والمعنوي من طرف البورجوازية والبورجوازية الصغيرة، والذين لابد من الحسم النهائي معهم في يوم من الأيام ، أي متى نضجت الظروف التي تسمح انجاز ذلك بنجاح .

هذه هي طبيعة الصراع الداخلي الذي خاضه البلاشفة طيلة عشر سنوات (1902-1912) ، والذي مكنهم من الحسم النهائي مع المناشفة ومختلف التيارات الانتهازية ، عبر الندوة المركزية التي انعقدت في يناير 1912 واعتبرت أن المناشفة قد أصبحوا خارج إطار الحزب بصفة لا رجعة فيها . هذا بعد أن قام لينين بآخر محاولة وحدوية من خلال استدعائه لدورة اللجنة المركزية التي انعقدت سنة 1910، وأصدرت مجموعة من التوصيات والملمتسات تدين الخط التصفوي بوضوح تام ، وتشكل بالتالي الأرضية التوجيهية والتنظيمية التي من الضروري أن تقوم وتستمر على أساسها الوحدة والعمل المشترك. إلا أن المناشفة لم يلتزموا فيه الواقع بالملمتسات التي صادقوا عليها إلا التزاما شفويا لفظيا، وساروا يمارسون خطهم المستقل المنافي لخط الحزب الذي تقرر ديموقراطيا ، وتحذوا رأي الأغلبية لصالح اختياراتهم الخاصة كأقلية مندسة تخدم في الواقع وبالنتيجة مصالح الطبقة البورجوازية ، مما استدعى الحسم النهائي معهم سنة 1912.

وإذا كان لينين ورفاقه ، قد خاضوا هذا الصراع بالمرونة التي ذكرنا ، وبالتريث والصبر الضروريين لعدم السقوط في إجهاض ولكي تشكل عملية الحسم ليس عامل إضعاف أو تشتت، بل عامل توضيح وتصحيح ، وبالتالي عامل قوة وتقدم .. فليس معنى ذلك أنهم لم يفطنوا للطبيعة الطبقيّة لتيار التصفويين والمناشفة ، وأن عشر سنوات بكاملها كانت ضرورية لكي يكتشفوا تلك الطبيعة ويدركوا خطورتها... على العكس من ذلك فإن الموقع الطبقي للمناشفة كان واضحا لهم بشكل مبكر وضوح الشمس . قال لينين بهذا الصدد سنة 1908 : "سيستعمل المناشفة وقت المعركة الحاسمة ضد الرأسمالية أساليب ووسائل أخرى غير تلك التي

يستعملونها حاليا ، وسنجدهم جنبا إلى جنب مع البورجوازية في الخندق المقابل لخندق الثورة... وهذا ما تأكد فعلا بشكل واضح سنة 1917، سواء خلال شهر مارس أو خلال ثورة أكتوبر...

وبنفس الحزم والصرامة الإيديولوجية التي ذكرنا توجه البلاشفة للرد على الأحزاب العمالية الأوروبية الغربية ، التي كانت عاجزة على فهم طبيعة وأهمية الصراع الإيديولوجي . يقول لينين في مقال أصدره سنة 1920 تحت عنوان "الخطابات الكاذبة حول الحرية " : "إذا ما ظل المناشفة في صفوف الثورة، فلا يمكن لهذه الأخيرة أن تنتصر . هذا أمر واضح مبدئيا ، وهذا ما أكدته التجربة في روسيا والمجر بشكل جلي. ولقد عرفت روسيا عدة أوضاع صعبة ، لو مكث المناشفة والاصلاحيون والبورجوازيون الصغار الديمقراطيون خلالها داخل الحزب لكانت الإطاحة بالنظام السوفيتي شيئا حتميا ومؤكدا. وفي إيطاليا نقترب الآن ، وبشاهدة الجميع ، من معارك حاسمة بين الكادحين والبورجوازيين من أجل استلام السلطة . وفي ظرف مثل هذا لا يصبح إبعاد المناشفة والاصلاحيين ضرورة مطلقة فحسب ، بل من الممكن أيضا أن يصبح إبعاد بعض الشيوعيين البارزين الذين قد يصيبهم التراجع ويميلون إلى الحفاظ على الوحدة مع الاصلاحيين شيئا مفيدا، وكذا عزلهم من جميع مناصب التقرير الأساسية . فقبل الثورة وفي ظروف المعارش الأكثر ضراوة من أجل الفوز والانتصار ، يمكن لأدنى تردد داخل الحزب أن يفسد كل شيء، ويفشل الثورة ، وينتزع السلطة من يد الكادحين. ولأن تلك السلطة لم تكتسب صلابتها بعد ولأن الهجمة ضدها تكون في أوج قوتها - وإذا ما انسحب القادة المتمردون في ظروف كهذه ، فإن ذلك لا يترتب عنه إضعاف للحزب، بل تقوية له والحركة العمالية وللثورة".

هذا ما دعا له لينين وتنبا به ، وما الإجهاض والانتكاسات التي عرفتتها مختلف المحاولات الثورية في أوروبا الغربية الا تأكيد قاطع على مدى صحة تلك التنبؤات وجدارتها .

طليعة الكادحين

رأينا سابقا كيف طرح لينين مسألة الحزب الثوري كأداة ضرورية لكفاح الكادحين ، وباعتباره طليعة للطبقة العاملة والجماهير الشعبية العامة . ولقد عاد لتشريح هذا المفهوم بدقة وتفصيل خاصة من خلال التوصيات التي تقدم بها للمؤتمر الثاني للأمم المتحدة والتي صادق عليها هذا الأخير . فالحزب الثوري كما يشرح لينين يضم جزءا من الطبقة العمالية - وليس الطبقة

بأكملها - أي الجزء الأكثر تقدما ووعيا وثورية ، والذي يتكون من أفضل العمال وأكثرهم وعيا ووضوحا في الرؤية ووفاء وإخلاصا لقضية الكادحين. والحزب الثوري ليست له من مصلحة إلا مصلحة الطبقة العاملة بأكملها - وبالتالي مصلحة أوسع الجماهير الكادحة -إلا انه يتميز عن "الطبقة بأكملها" بكونه قادرا على "استيعاب المسيرة التاريخية " لتلك الطبقة ، وتحليلها وتفسيرها بشكل علمي ، ومواكبتها في حاضرها ومستقبلها، والدفاع بشكل مستميت وفي كل منعرج من منعرجات تلك المسيرة على مصلحة الطبقة العاملة بأكملها ، وليس مصلحة هذه المجموعة أو تلك من المجموعات المعزولة أو المنظمات المهنية أو الجهوية الخاصة . وبالتالي فان الحزب الثوري يشكل الأداة السياسية والتنظيمية التي تمكن الجزء الأكثر تقدما من الطبقة العاملة من قيادة نضال كل الجماهير الشعبية في الاتجاه الصحيح. ومن اجل ذلك فلا يجوز له أن يكون في مؤخرة نضال الكادحين ، بل عليه أن يحتل مقدمتها و طليعتها، وان يكون مثالا في الصمود والمثابرة والإقدام ، إذا ما أراد فعلا كسب ثقة العمال وكافة الكادحين . ومن ثم ضرورة تواجد مناضليه داخل المنظمات الجماهيرية من نقابات وجمعيات وحلقات ثقافية وتربوية وتنظيمات للشباب ... الخ. والتواجد يعني هنا أيضا احتلال الصفوف الأمامية في النضال الجماهيري بشكل ديمقراطي، دونما تعسف ولا بيروقراطية، ولا فوضوية كذلك، بل بالإقناع عن طريق المواقف السلمية نظريا وعمليا مقرونة بالتوضيحية ونكران الذات.

ولقد ركز لينين ولخص دور الحزب الثوري الشامل هذا من خلال عبارة وردت له في كراسه المشهور "المرض الطفولي الشيوعي" عندما قال : "إن الحزب يشكل أرقى أشكال وحدة الطبقات الكادحة" وان عليه أن يقود كل الأشكال الأخرى من تلك الوحدة النضالية وان يشارك في الكفاح بشكل فعال ونشط. ومن هذه الزاوية خاض البلاشفة صراعا إيديولوجيا ضد ما اصطلح عليه "بحياد" النقابات والتنظيمات العمالية و"باستقلالية" الفرق البرلمانية وأوضحوا بالحجة الملموسة القاطعة أن ذلك "الحياد" وتلك "الاستقلالية" وغيرها من الشعارات المضللة التي تريد فصل تنظيمات الجماهير عن طليعتها السياسية فصلا تعسفيا، ما هي في الحقيقة إلا تعبير عن "تبعية مخجلة للبورجوازية " والرجعية عامة .

مقابل ذلك أوضح لينين أن قيام ثورة الكادحين وانتصارها رهين بوجود حزبها السياسي المستقل وبالذور الطليعي الذي عليه أن يضطلع به. فلا النقابات ولا الجمعيات ولا التعاونيات قادرة على أن تقوم بهذا الدور ، وذلك مهما بلغت أهمية الدور الذي لعبه في تاريخ نضال الكادحين من اجل التحرر من الهيمنة الرأسمالية . والحزب الثوري لا يشكل الأداة الضرورية

لتحقيق التغيير وحسب، بل الأداة التي لا مناص منها لتحقيق سلطة الكادحين والحفاظ عليها وتوسيعها .

ولقد تمكن الحزب البلشفي من أن يصبح فعلا حزبا حاكما بعد أن قاد الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء وكافة الجماهير الكادحة نحو الانتصار العظيم الذي حققته ثورة أكتوبر 1917. فبدأ عدد من العناصر التي كانت خارجة عنه تلتحق بصفوفه (أفواجا افوجا..) ومنها مجموعات من المثقفين الذين تقدموا بنوع من الاعتراف أو "النقد الذاتي" للحزب خاصة بعد انتهاء الحرب الأهلية وبداية مرحلة إعادة بناء الهياكل الاقتصادية. وهذه الالتحاقات "المتأخرة" كان بإمكانها أن تلحق أضرارا بالغة بالحزب، لولا اليقظة والحذر الذي تشبع به كوادره وقادته ومناضلوه من خلال تجربة طويلة مريرة علمت الحزب الانتباه المستمر لعمليات التلغيم التي يمكن أن يتعرض لها عن طريق العناصر الدخيلة المندسة. في هذا الإطار دعا لينين غداة الحرب الأهلية إلى تطهير صفوف الحزب بشكل مستمر، والتأكد من "قول وفعل" كل العناصر التي فتح الحزب المجال أمامها لكي تلتزم وتشارك في عملية البناء بالرغم من موقفها السلبي السابق ، والتأكد من أنها لم تدخل الحزب على أسس انتهازية أو من أجل بث عوامل التششت والانحراف من داخله .

هكذا شكل الدور الطليعي القيادي للحزب ، ووضوح خطه ايلاديولوجي ، صلابه هياكله التنظيمية الثابتة ، والتطهير المستمر لصفوفه من العناصر الانتهازية الدخيلة، والانضباط الحديدي داخله ، شكلت هذه المفاهيم والضوابط القاعدة الصلبة التي انبنى عليها الحزب وواكب مسيرته المظفرة .

الانضباط والوحدة

إذا كان الصراع الإيديولوجي الصارم ضد كل أنواع الانحرافات عن الخط الثوري، هو الذي صهر حزب لينين ورفاقه ومكنه من بلورة هويته المتميزة فان هذا الصراع لم يعرف يوما ما صيغ المناورة والالتواء، أو التجاوز والتغاضي باسم الحفاظ على "السلم" داخل الحزب والإجماع والوحدة، بأي ثمن ، وكيفما كان الاتجاه التي ستقود إليه هذه الوحدة. بل على العكس من ذلك ، فان البلاشفة وعلى رأسهم لينين ، لم يعملوا يوما ما على اخفاء التفاوتات أو التناقضات الصارخة في وجهات النظر تحت أي مبرر من المبررات العاطفية أو المثالية ، وان أدى ذلك إلى الانشقاق وانسحاب المنحرفين من الحزب، لأن تلك هي مصلحة الحزب ومصلحة الجماهير الكادحة في نهاية المطاف. وهذا ليس معناه ضرب لوحدة الحزب أو خروج عن

الانضباط الحزبي، على العكس من ذلك فإن البلاشفة كانوا اشد الناس حرصا على الانضباط الحزبي الحديدي، ليس الانضباط الأعمى البيروقراطي، لكن الانضباط الواعي النضالي المبني على القناعة الإيديولوجية الثابتة، والاقتناع بصحة الخط، وسلامة ممارسة الهيئات القائمة له، وتفانيها في خدمته، و ذلك وحده يولد الثقة الحقيقية - أي الثقة بمفهومها الموضوعي الثوري لا الطوباوي المجرد - في تلك القيادة ويعزز الانضباط الحديدي داخل الحزب. وحتى لما فقد البلاشفة الأغلبية داخل الحزب على اثر "مؤتمر الوحدة" سنة 1906 لصالح المناشفة والمجموعات المتحالفة معهم، فإنهم لم يختاروا الخروج من الحزب بل اختاروا "إعادة كسبه من الداخل" كما دعا لينين إلى ذلك باحترام للانضباط ولقواعد صراع الأفكار الديمقراطي . الشيء الذي مكنهم ، إلى جانب صحة مواقفهم وممارستهم الطلائعية ، من إعادة كسب الاغلبية داخل الحزب وعزل المناشفة والمرتدين ، قبل الحسم النهائي معهم .

فلينين لم يكن يوما من دعاة الانفصال والاستقلالية بأي ثمن ، بل انه كان باستمرار يستنفذ كل الإمكانيات المتاحة للحفاظ على وحدة الإطار ، ولايقبل على الحسم النهائي إلا أمام الأخطار المحدقة ، وبعد نضج التناقضات بشكل لا رجعة فيه .

هذا النهج ، نهج الانضباط والوحدة وصراع الأفكار في نفس الوقت، هو الذي شرّحه لينين في العديد من كتاباته، حيث ألح باستمرار على "وحدة العمل وحرية النقاش والنقد" وعلى أهمية الانضباط والالتزام التنظيمي، "لأن الجماهير الكادحة بدون تنظيم لا تساوي شيئا، وأنها هي كل شيء إذا ما تنظمت .." ويشرح لينين أن المقصود من "وحدة العمل" هي العمل المشترك الملموس الذي يقدم خطوات إلى الأمام نحو تحقيق الأهداف السامية للطبقات الكادحة "ويعمل على توحيدها إيديولوجيا والرفع من مستوى نضالها"، وليس أي عمل يؤخر ذلك النضال أو يزيغ عن تلك الأهداف ويطعن المبادئ الأساسية . "لأن التنظيم بدون مبادئ ومثل عيا لا معنى له، بل انه يحول العمال إلى مجرد خدام تابعين للبورجوازية السائدة. ومن ثم فعلى العمال الواعون وعيا طبقيا أن لا ينسوا أبدا أن الخروقات التي تمس المبادئ تجعل من حسم العلاقات التنظيمية مع أصحابها واجبا لا محيد عنه ..." .

وصية لينين

استعرضنا في هذه العجالة بعض المبادئ والمفاهيم التنظيمية الأساسية التي اعتمدها لينين ورفاقه في بناء الأداة الثورية التي خاضت الجماهير الكادحة بواسطتها كفاحها المستميت ضد الظلم والاستبداد والأوتوقراطية والاستغلال الرأسمالي في أبشع صوره وأشدّها عنفا

وقساوة ، ومن اجل بناء المجتمع الاشتراكي ، مجتمع المساواة والعدالة الاجتماعية ، تلك المفاهيم والمبادئ المقرونة بالعمل والممارسة العليا، والتي عرفت كيف تربط وتدمج في ما بين مجموعة من القواعد والضوابط التنظيمية في بنیان تنظيمي منسجم متكامل ، تتفاعل تناقضاته الداخلية ، كلما وجدت ، ليس في اتجاه إضعافه وتحطيمه ، بل تقويته وتعزيزه، فاعتماد نواة ثورية صلبة ثابتة لا يتنافى مع المرونة المتناهية من أشكال وصيغ الارتباط بال جماهير الكادحة والتجدر وسطها وتأطير وقيادة نضالاتها وحرية النقاش ، وإبداء الرأي في القضايا الأساسية بالنسبة لكل عضو داخل الحزب لا يتناقض والمركزية والانضباط الحديدي الجماعي الذي يجعل من الحزب ذلك الجسم المتماسك "المصهور في قالب فولاذي"، وتعارض الأفكار وصراعها لا يجوز أن يعيق وحدة العمل والمبادرة والنضال في الساحة ، والحفاظ على وحدة الحزب ومصالحته العليا يقتضي استنفاد ما يمكن استنفاده من محاولات رد المنحرفين عن ضلالهم وإرجاعهم للخط الصحيح السليم، لكنها تقتضي أيضا ومعها المصلحة العليا للكادحين، الحسم الصارم النهائي مع الإصلاحيين والانتهازيين في الوقت المناسب بدون أدنى تردد ولا مجاملة ... وتبقى عبقرية وفن القادة الثوريين من أمثال لينين في تقدير "الجدوى الثورية" بالنسبة لكل مرحلة مرحلة ، وحسب خصوصيات كل ظرف كمقياس دائم أساسي لتوفير الربط الجدلي بين مختلف هذه "الأضداد" ، وفي توجيه وقيادة نضال الكادحين بما يصون ويعزز مكتسباتها ويقدمها خطوات فعلية نحو تحقيق أهدافها المنشودة .

إن هذه المبادئ والمفاهيم التنظيمية هي نفسها التي عاد لينين ليشرحها من خلال تدخله في آخر مؤتمر تمكن من حضوره سنة 1922، فوردت منه عبارة غاية في التركيز اعتبرت بمثابة آخر وصية من هذا القائد الثوري العظيم ، والتي يمكن ترجمتها بشكل تقريبي بعبارة "الجودة وليس الكم" ، أي أن الأساسي والمهم ليس هو الكم والحجم لعددي للحزب ، لكن الأساسي والجوهري يكمن في نوعية وجوده وتنظيمه ، وحسن سيره الداخلي ، وتماسكه وصلابته، وطبيعة ارتباطاته الطليعية بال جماهير الشعبية وقضاياها الجزئية منها والمصيرية .

خلاصة وعبرة

إن المفاهيم التنظيمية الأساسية التي استمدها البلاشفة في بناء حزبهم - والتي وضعها في سياق مسيرة الحزب ككل والظروف التاريخية التي أحاطت بها داخليا وخارجيا - قد أصبحت بحكم التجربة ونتائجها الايجابية ملكا لكل الكادحين بل وثراتا كونيا إنسانيا . وإنما عندما نتعرض لها اليوم ، يظهر لنا وكأننا بصدد بديهيات تنظيمية معترف ومسلم بها ... إلا أنه،

إضافة إلى الفائدة الجمّة في تذكير بعض المنحرفين والمرتدين الذين حاذوا عن هذه البديهيّات
نفسها وتنكروا لها ، مما يجعل انتهازيّتهم بديهيّة...